

الهجرة

في يوم من أيام صفر من العام الذي سمي بعد «عام الهجرة»، بُنيت الدعوة في عظماء قريش أن يجتمعوا في «البرلمان» لأمر خطير.

نعم، وكان لقريش برلمان، ولكن لم يكونوا يسمونه هذا الاسم الأجنبي الذي يقتبسونه من غيرهم، إنما كانوا يسمونه اسمًا ظريفًا من وضعهم، هو «دار الندوة» — يجتمعون فيه كلما حَزَبَهم أمر، أو جَدَّ لهم حادثٌ خطير.

ولم يكن لبرلمانهم دستور مكتوب، إنما هو دستور متعارف، خلقتة الأوضاع والتقاليد، ولم يكن له قانون انتخاب، إنما يتهاى للعضوية فيه من أثبت بفعاله عظمته في قبيلته، وكل ما اشترطوا بعد أن يكون العضو من قريش، وأن يبلغ الأربعين.

وكان مكان البرلمان دارًا لقَصِيَّ بن كلاب، توارثها أعقابه من بعده، وخصصوها لتشاورهم والتحدث في عظام أمورهم، «وكانوا لا يقضون أمرًا إلا فيها»، وكانت تقع في الجانب الشمالي من الكعبة، وهي الآن جزء من المسجد الحرام.

تم اجتماع الأعضاء في الموعد المحدد، وتمثلت فيه قبائل قريش برجالاتها وعظائمه؟ هذان عُتْبَةُ بن ربيعة وشيبة بن ربيعة يمثلان عبد شمس؛ وهذا أبو سفيان يمثل أمية؛ وهؤلاء طعيمة بن عدي وجبَيْر بن مُطْعَم والحارث بن عامر يمثلون عبد مناف؛ وهذا النضر بن الحارث بن كَلْدَةَ يمثل عبد الدار؛ وهذا أبو البَخْتَرِي وَرَمْعَةُ بن الأسود وحكيم بن جِزَام يمثلون بني أسد بن عبد العزى، وهذا أبو الحكم بن هشام يمثل بني مخزوم؛ إلى كثير غيرهم يمثلون القبائل القرشية كلها.

ساد السكون، وظهر على وجوههم الجد. ما الأمر الذي دُعوا إليه؟ لقد عرفوه مجملًا، والآن يريدون أن يعرفوه مفصلاً، ويريدون أن يقضوا فيه قضاءً حازمًا حاسمًا.

الأمر أمر محمد وصحبه ... لقد سمعنا دعوته أول أمرها فاستخففنا به وبها، وقلنا: «مجنون» أو شاعر نتربص به ريب المنون، وظننا أن دعوته تذهب مع الريح، فليدع ما يدعو فليس له سميع! وقد بدأ دعوته مسالماً، يدعو في رفق ولفظ ويقول: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * أِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، فتركناه وشأنه ولكنه خطا بعد خطوة أجراً وأقطع، فكان يدعو سراً فدعا جهراً، وسب آلهتنا، وسفّه أعلامنا، وضلل آباءنا؛ فطلبنا من قومه أن يكفوه عنا، أو يخلوا بينه وبيننا، فلم يكن هذا ولا ذاك؛ فاتجهنا اتجاهاً آخر، وهو أن نتركه ونعذب من اتبعه، حتى يكون في تعذيبهم نكال لهم وعظة لغيرهم؛ فأوعزنا إلى كل قبيلة أن تثب على من فيها من المسلمين؛ تعذبهم وتفتنهم عن دينهم، فنفذت ذلك بما استطاعت من قوة، فحبستهم وعذبتهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر؛ هذا إن كان ضعيفاً — وإن كان شريفاً سفهنا حلمه، وفيلنا رأيه، ووضعنا من شرفه، وإن كان تاجراً كسدنا تجارته، وأهلكتنا ماله؛ فما أغنى كل ذلك شيئاً، فالقليل من افتتن، والكثير من أصر على دينه، وفضّل الموت على الرجوع عنه؛ ثم رجعنا إلى محمد نرغبه في العدول عن دعوته وقلنا: إن كنت جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً طلبنا الطب لك حتى نبرئك منه. فقال: «ما بي ما تقولون! ولكن الله بعثني إليكم رسلاً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً».

رجعنا إلى تعذيب أصحابه، فهاجروا إلى الحبشة، ونشروا ذكر محمد في الآفاق وفي كل موسم حج، تأتي قبائل العرب من كل فج. فيتسامعون بمحمد ودعوته، ويعرض هو نفسه على القبائل ليدخلوا في دينه، ويحموا دعوته، وترجع كل قبيلة تتحدث بما رأت وما سمعت.

وأخيراً تمت الكارثة، فقد لبى دعوته الأوس والخزرج من أهل يثرب، وأتى نقباؤهم فبايعوه في هذا الموسم على أن يمنعوهم مما يمنعون منه نساءهم وأبنائهم، وهؤلاء أصحابه يخرجون إلى يثرب أسراباً أسراباً، وعمّا قليل يتبعهم محمد.

وماذا تكون العاقبة؟

سيتأخى من أسلم من قريش ومن أسلم من الأوس والخزرج، وسيكونون قوة عظيمة تحاربنا وتجالدنا، والأوس والخزرج أبناء الحروب وأهل السلاح، فإذا انضم

إليهم أبناء قريش ممن أسلم مع محمد فالويل لنا؛ سيمنعون تجارتنا ولا عيش لنا إلا بالتجارة، وسيبثون معه الدعوة إلى القبائل الأخرى، فيدخلون في دينه، ثم لا يكون لنا إلا الخزي والعار والفقر، وما هو ذا محمد اليوم بين أظهركم، وغداً قوة في يد أعدائكم. هذا هو الموقف، وهذه هي مسألة اليوم.

فما الرأي؟

وقف أبو البختري بن هشام فقال: «احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه باباً، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين قبله، زهير والنابغة ومن مضى منهم، حتى يصيبه ما أصابهم».

عورض هذا الرأي وردّ عليه رادّ فقال: لئن حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلاؤشكوا أن يثبوا عليكم فينزعوهم من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي! واقتنع المجلس بفساد هذا الحل.

فوقف أبو الأسود ربيعة بن عامر، وقال: الرأي عندي أن نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، فإذا خرج عنا فوالله ما ندري أين ذهب ولا حيث وقع، إذا غاب عنا وفرغنا منه أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كنت.

قوبل هذا الرأي باستخفاف لاذع لظهور سخفه، ورحم أحد الحاضرين قائله فرد عليه: «ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتكم أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم في بلادكم، فيأخذوا أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد».

اقتنع المجلس — وكان من قبل مقتنعاً — بفساد الرأي.

فقام أبو الحكم بن هشام، وقال: «والله إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد، أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف — رهط محمد — على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل، فعقلناه لهم».

خلب هذا الرأي لب المجلس وارتضوه وتواصوا بسرّيته حتى ينفذ، وختمت الجلسة.

أبلغ النبي ذلك ونزل عليه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

وكان أبو بكر يتهياً للهجرة إلى المدينة كما خرج غيره من قبل، والرسول يأمره بالانتظار حتى يخرج معه، فلما عزم الأمر أعدت العدة وأحكمت الخطة. لئن خرجنا ظاهرين لتتعبنا قريش، ولا بد أن يلحقونا فيرجعونا ويؤذونا، فلجأ إلى جبل ثور (على مسافة ساعة من مكة) ولنختف في غار فيه، ولنعم الأثر حتى لا يعرف مكاننا أحد.

لقد كانت أياماً شديدة حقاً، ثلاث عشرة سنة على النبي ﷺ في جهاد متصل، ودعوة مستمرة، وطلب واضح أن يعدلوا عن عبادة الأصنام التي لا تنفع أحداً ولا تضر أحداً، إلى عبادة الله الذي بيده النفع والضر. ثم لا يظفر من قومه بعد كل ذلك إلا بهذا العدد القليل من المسلمين، ثم هم لا يتركونه ودعوته، ولا يكتفون بالصد عنها وعنه، بل يعذبون أصحابه أشد العذاب، وأخيراً يقررون قتله فيضطرونه إلى الخروج من بينهم سراً. ما أشدها ساعة يفارق فيها أهله وقومه ووطنه، والكعبة أحب مكان إليه! وقد عبّر عن هذا كله إذ وقف على نشز من الأرض حين خرج من مكة ونظر إلى البيت، وقال: «والله إنك لأحب أرض الله إليّ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت منك».

مرت ثلاثة أيام في الغار وهي أشد ما تكون عليهما، طلب مستمر من أهل مكة وجعل كبير لمن يجدهما، واقتفاء أثر ممن اشتهر في القيافة، وعذاب شديد في حياة الغار، حتى لقد تقطرت قدما الرسول دمًا، إذ يتعود الحفَى والجفوة، وساعة رهيبه إذ يصل القافة إلى الغار، ولو نظروا من عند أقدامهم لرأوهما، وحزن شديد من أبي بكر، وطمأنينة وثبات من النبي، فيقول لصاحبه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾. حتى إذا خف من قريش الطلب وقطعوا الأمل خرج النبي وصاحبه من الغار إلى المدينة في حفظ الله.

وقاية الله أغنت عن مضاعفة من الدروع وعن عال من الأطم

لقد خرجا من مكة أول ربيع الأول (في يونيه سنة ٦٢٢م) حيث يشد الحر وتتوهج الصحراء، وكانا يعرّجان على من يلقيان من الأعراب يتزودان بالمأكل والمشرب بمالهما. وكان لهما على طول الطريق ذكريات وأحاديث وآمال. لقد كان موقفه من قريش كما قال القائل:

ثَوَى فِي قَرِيْشٍ بَضْعَ عَشْرَةِ حِجَّةٍ يُذَكِّرُ لَوْ يَلْقَى صَدِيقًا مَوَاتِيَا

ثم يكون آخر الأمر تأمر على قتله وإخراجه وأتباعه من الديار بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله، ومرت في ذهنهما الحوادث من بدء الوحي إلى وقتها هذا، ولو أثرت عند غيره لأثارت الحفيظة والمقت، ولكنه النبي الذي ما كان يزيد في أشد الأوقات حرجاً على قوله: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». وانقطعت ذكريات مكة وأحاديث مكة، وقفز الذهن إلى يثرب وأهلها ومستقبلها ومشاكلها. إن بها اليهود فما هم صانعون؟ وإن بين أهلها خصومات، فكيف تستأصل؟ وإن الحالة الاقتصادية فيها سيئة، فكيف تتسع لمن هاجر إليها من قريش؟ وإن أرضها موبوءة لم يتعودها المكيون، فكيف تعالج؟ وأول كل شيء وقبل كل شيء ما مصير الدعوة؟ ويجب النبي قلبه: «لقد وعد الله — ووعده الحق — أن يتم نوره ولو كره المشركون».

هذا هو النبي ﷺ يدخل يثرب، وهامهم أشرافها يتسابق كل منهم أن يجوز الفخر بنزوله عنده، وهذا مسجده يقام، وهامو الأذان يُشَرِّع فيجلجل صوت بلال في المدينة، وهامهم أهل المدينة يدخلون في الإسلام أفواجا، بنسائهم وذرائعهم، وهامو رسول الله يؤاخي بين المهاجرين والأنصار، فيكون منهم وحدة متماسكة على أساس التعاون في الخير، ونصرة الحق، واحتمال الأذى في سبيل الدعوة إلى الله. وهذه المشاكل كلها تحل، فتحل مشكلة اليهود ومشكلة الفقر ومشكلة الوباء، ويصبح أهل المدينة أنصاراً، يحمون الدعوة، ويحققون ما عاهدوا رسول الله عليه، فيكون منهم ومن المهاجرين قوة ليس ما يدانيها في جزيرة العرب كلها؛ قوة إيمان تدعمها قوة سلاح، فتنتشر الدعوة، وتغد الوفود معلنة إيمانها، وتفتح مكة، وتدخل قريش فيما دخل فيه غيرهم، بعد أن فلت شوكتهم، وضعت قوتهم، ويعم الإسلام جزيرة العرب، ويتلو رسول الله:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَعِظْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

ويقف على باب الكعبة بالقرب من دار الندوة، حيث تأمرت قريش على قتله منذ ثمان سنوات، فيقول: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعزَّ جُنده، يا أهل مكة! ما ترون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيراً، أخُ كريم وابن أخٍ كريم، فيقول: «أذهبوا فأنتم الطلقاء». لا يحمل حقداً ولا ضغينة، ولا يريد انتقاماً، إنما يريد أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن تكون كلمة الذين كفروا السفلى، وقد كان كل ذلك، فلا غضب ولا انتقام، وتُدوي جزيرة العرب كلها بلا إله إلا الله محمد رسول الله.

ذهبت أيام وجاءت أيام، وتولى عمر بن الخطاب، ومضى على خلافته سنوات والعرب تؤرخ بالأحداث العظام، فيقولون: حدث ذلك عام الفيل، وولد فلان بعد عام الفجار بسنة، وهي أحداث لا تتفق وعظمة الإسلام، ولا تصلح أن تكون تاريخ أمة عظمت فتوحها، ومست الحاجة لضبط شئونها وأعمالها؛ فيجمع عمر بعض الصحابة يستشيرهم: أيّ الأحداث أولى أن يكون مبدأ التاريخ الإسلامي، أولادة النبي ﷺ أم وفاته أم نزول الوحي في غار حراء؟ ويقترح «علي» أن يكون الهجرة، فهي مبدأ نجاح الدعوة وانتشار الإسلام ومحق الشرك، فكان كما قال، وكانت الهجرة في الربيع الأول، وكان هذا التشاور في السنة السابعة عشرة، فأضافوا الأشهر السابقة على ربيع حتى يبدءوا بما اعتادوا به بدء السنة وهو المحرم، وجرى الأمر على ذلك.

ثم تتابعت السنون، وتتابع هلال المحرم على المسلمين، بالسعود مرة، وبالنحس أخرى، وبالنعيم أحياناً، وبالبؤس أحياناً ورأهم في عزهم، ورأهم في ذلهم، ورأهم سادة، ورأهم عبيداً، ورأهم يستيقظون وينامون ولكن لا يموتون، وتتوالى عليهم الكوارث التي تبلي الحديد ولكن لا يبُلُون، وتتعاقب عليهم سنو الضعف حتى يُشْفُوا على الموت ثم يشْفُونَ، وحتى يندمج فيهم من عادهم، وينصرهم من ناوأهم، ويدخل في دينهم من حاربهم لدينهم، ويأس من تنصيرهم من حاول تنصيرهم، ومن تجريدهم من عزهم من حاول أن يسلبهم عزتهم؛ فكانوا كالمطاط يُضْغَطون فلا يتشكلون إلا ريثما ينفرون ثم يستردون مكانتهم، ويعودون إلى عزتهم.

وهامهم في الأهلة الأخيرة ينتبهون من نومٍ طويل، فيدركون موقفهم ويألمون له، ويشعرون بالمرض بعد أن فقدوا الحس به، ويبحثون عن الدواء فيجدونه، ويحاولون أن يعودوا إلى مجدهم فيهدون للطريق.

الهجرة

فعى أن يكون هلال المحرم أسعد عليهم ممن سبقه، يزدادون فيه علمًا بإدراك موقفهم، ويزدادون همّة في إصلاح ما ورثوا من آبائهم، ويزدادون خلقًا فيوحدون كلمتهم ويعلو شأنهم؛ وتأخذهم العزة فيأبون إلا أن يقفوا مع أرقى الأمم على قدم المساواة، فيتحررون كما تحرروا، ويبنون كما بنوا؛ وإذا سيموا خسفًا قالوا: «لا» بملء فيهم؛ ثم تدوي كلمتهم في العالم كما دوت من قبل، ويعتز بهم العلم والخلق والحق كما اعتزت بهم من قبل.
حقق الله الأمل.